

محمد المريمي | Mohammed Merimi⁽¹⁾

المعرفة التاريخية والدولة لدى مؤرخي الأطراف في البلاد التونسية خلال العصر الحديث

Historical Knowledge and the State among Historians of Rural Tunisia in the Modern Era

يقسم بعض المؤرخين⁽²⁾ الإخباريين إلى منتجي معرفة تاريخية موضوعها الدولة أساسًا، وإلى آخرين منتجي معرفة تاريخية تتعلق موضوعها بجهاتهم. ذكر أحمد عبد السلام العديد من الإخباريين الموالين للدولة، وقدم لمؤلفاتهم، من بينهم ابن أبي دينار في القرن السابع عشر، وحسين خوجة والوزير السراج وحمودة بن عبد العزيز في القرن الثامن عشر، وخير الدين التونسي وأحمد بن أبي الضياف وغيرهم في القرن التاسع عشر⁽³⁾. وركز هؤلاء المؤرخون في أخبار السلطة المركزية، ولم يجرّ التطرق إلى أخبار الجهات والمجتمعات الطرفية في متونهم ومؤلفاتهم إلا بقدر تدخل الدولة فيها. ويهتم مؤرخو النواحي بأخبار جهاتهم والمجتمعات المحلية وأهل المناطق الطرفية التي يكتبون عنها. وذكر بعضهم أيضًا أحمد عبد السلام في رسالته في تاريخ الثقافة، ومن بينهم في القرن السابع عشر، المنتصر بن المرابط بن أبي لحية القفصي، وفي القرن التاسع عشر محمود مقديش الصفاقسي ومحمد أبو راس الجربي، وبقي بعضهم إلى تواريخ متأخرة غير معروف لدى الخاصة والعامة بسبب عدم الترجمة له، من بينهم سليمان بن أحمد الحيلاتي الجربي وسعيد بن تعاريت الجربي⁽⁴⁾ وغيرهما. وركز هؤلاء في هياكل النفوذ المحلية، ولم يهتموا بأخبار الدولة إلا بقدر ما لهياكل النفوذ المحلية علاقة بها. وفي الحصيلة، تكون أخبار الدولة في إنتاج المعرفة التاريخية لدى هؤلاء، طرفية بالنسبة إلى الأخبار المتعلقة بهياكل النفوذ المحلي، ويكون الأمر على النقيض من ذلك لدى أولئك.

وتمثل الدولة والمجتمعات المحلية ومؤسسات النفوذ المحلي تركيبات سياسية ومجتمعية معقدة تشارك فيها أطراف عدّة وفاعلون اجتماعيون من بينهم المؤرخون أنفسهم. وتنشأ في الحالات جميعها معادلة بين المؤرخ بوصفه فاعلاً اجتماعياً، والمؤرخ بوصفه منتجاً للمعرفة التاريخية.

واستناداً إلى هذا المنطق سندرس علاقة المعرفة التاريخية بالدولة وطبيعتها في متون الإخباري سليمان بن أحمد الحيلاتي والإخباري محمد أبو راس الجربي ورسائلهما. وينتمي كلاهما إلى جزيرة جربة ولذلك ينعت كل منهما بالجربي ويتخذان من الجزيرة، خلال عهد

1 أستاذ محاضر في كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة وعضو بمخبر دراسات مغربية في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تونس.
Lecturer in the Faculty of Arts and Humanities in Manouba and a member of the Maghreb Studies Laboratory at the Faculty of Humanities and Social Sciences in Tunis, Tunisia.

2 Abdelhamid Henia, "Historiographie moderne en Tunisie et mémoires de l'Etat (XVIIIe-XIXe siècle)," in: *Ecritures de l'histoire du Maghreb: Identité, mémoire et historiographie*, coordination A. El Mouden, A. Henia, A. Benhadda (Rabat: Faculté des lettres et des sciences humaines, 2007).

3 أحمد عبد السلام، *المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م، رسالة في تاريخ الثقافة*، نقلها أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي (قرطاج: بيت الحكمة، 1993)، ص 155.

4 سعيد بن تعاريت، رسالة في تاريخ جربة في تراجم علماء الجزيرة وذكر أمرائها من بني السومني وبني الجلود، مخطوط، المكتبة البارونية، حومة السوق - جربة.

الأتراك العثمانيين، موضوع متنبهما. وقد كانت جربة حينها تحت حكم عائلات أعيان إياضية وخصوصاً عائلة الشيخ مسعود بن صالح السمووني. وكان آخر أمراء الحكم ومشايخه في جربة، السمووني الذي تولى الحكم سنة 1558، ثم عائلة بن جلود التي انقرضت بوفاة الشيخ سعيد بن محمد بن صالح بن جلود سنة 1800-1801. ومرت جربة حينها من تبعية الإيالة الطرابلسية التي استمرت من سنة 1551-1552 حتى بداية القرن السابع عشر، ثم ألحقت بالإيالة التونسية، وبلا رجعة، بداية من عهد يوسف داي (1610-1637)⁽⁵⁾.

والمهم أن نفهم طبيعة المعرفة التاريخية التي أنتجها الإخباري الحيلاتي المتوفى نهاية القرن السابع عشر، والإخباري الجربي المتوفى في مطلع القرن التاسع عشر. ما مكانة الدولة ومنزلة أخبار منطقة جربة في متنبهما؟ وما علاقة الوضع الاجتماعي الذي كان يشغل هذا وذلك بإنتاج المعرفة التاريخية؟ وهل لهما خلفية معيّنة يستتران وراءها ومشروع سياسي ومجتمعي يروّجان له ويدافعان عنه؟ وهل هذه المشاريع متشابهة أم متنافرة؟

الموضوع واحد والمعرفة التاريخية جمعاً

نتطرق إلى الكتابة التاريخية وكيفية إنتاج المعرفة التاريخية لدى الحيلاتي⁽⁶⁾ والجربي⁽⁷⁾ في مستوى الخبر التاريخي أولاً، وتنبهما في الحالتين كليهما الأخبار الواردة في خطابيهما في سياق العلاقة بالدولة، وفي الحالة التي نحن فيها، دولة الأتراك العثمانيين في طرابلس وفي تونس من حيث زمانها والفاعلون الاجتماعيون فيها ومجالها ثم مكانة البناءات الطرفية منها. كما نتطرق إلى الخبر التاريخي في علاقة بالتركيبية السياسية والاجتماعية التي تمثلها هياكل النفوذ المحلي، والحالة التي تهمنا هي حالة النظام السياسي والإداري الإياضي، المعروف في جزيرة جربة بنظام العزابة من حيث مؤسساته وذاكرة أهل الجزيرة ووحدة تراه أو عدمها. ويذهب اهتمامنا إلى مستوى ثانٍ لتناول الموضوعات التي يتطرق إليها الإخباريان كلاهما، وما تفرزه من اختلاف في صوغ خطابيهما في مدونة خاصة بهما من حيث طبيعتها وتقاطعها أو تنافرها، كما نسعى إلى إبراز الحدود الفاصلة و/أو الواصلة بين نسيج الخبر في متن كليهما. كما سنتطرق إلى موضوع من الموضوعات المشتركة التي تم تناولها في المتنين كليهما، فنتناوله مثلاً للدرس والتمحيص.

واختزنا من بين الأخبار المشتركة الواردة في متني الحيلاتي والجربي خبراً يمثل حدثاً تاريخياً تأسيسياً، مفاده: قطع جزيرة جربة علاقتها بالعهده الحفصي وتبعتها للبلاد التونسية، ودخولها إلى الإمبراطورية العثمانية وتبعتها لها، وهي بذلك تصبح طرفاً ضمن إيالة طرابلس. ويتمثل الخبر بدخول درغوث باشا والي طرابلس إلى الجزيرة، وضمها إلى الإيالة الطرابلسية التي فتحها الأتراك العثمانيون سنة 1551-1552. ويقول الحيلاتي بخصوص ذلك: "وفي سنة ستة وستين دخل الشيخ مسعود بن صالح (السمووني) جربة ووقعت الفتنة بين سدويكش ومستاوة والأتراك وعرب الحزم في مرسى سدويكش فكانت الدائرة على سدويكش وتمادت الفتن والقتل بين الفريقين سبعة أشهر وجاء الباشا درغوث من طرابلس مع أولاد شبل والسبعة وزوارة وخلق كثير براً وبحراً ونزل قشتيل الوادي فالتقى مع الشيخ مسعود والوهبية في سبخة القشتيل فوقعت الدائرة على الوهبية لكثرة جنود طورغود ومات منهم ألف وماتتان ومات من الأتراك ومستاوة ومن معهم خلق كثير، ووقع من الفياء والسبي وهتك الحريم ما لم يأذن به الله"⁽⁸⁾.

5 بخصوص انتقال جزيرة جربة من تبعية الإيالة الطرابلسية إلى الإيالة التونسية، انظر: محمد المريمي، "الفتن الاجتماعية بجزيرة وعلاقتها بالسلطة المركزية خلال العصر الحديث"، مذكرة شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1990 (غير منشورة)، ص 95.

6 سليمان الحيلاتي، علماء جربة المسمى رسائل الشيخ سليمان بن أحمد الحيلاتي الجربي، تحقيق محمد فوجعة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998).

7 محمد أبو راس الجربي، مؤنس الأحبة في أخبار جربة، تحقيق محمد المرزوقي (تونس: المعهد القومي للآثار والفنون، 1960).

8 الحيلاتي، ص 5.

أما الجري فيروي الخبر نفسه على النحو الآتي: "وفي سنة ستين وتسعمائة قدم صاحب طرابلس درغوث باشا إلى الجزيرة بعساكره من الترك وزوارة والسبعة وأولاد شبل ولما سمع أهل الجزيرة بقدمه أرسلوا إلى صاحب تونس أحمد بن الحسن الحفصي يستمدونه فلم يلتفت إليهم لعجزه واختلاف أمره فهاجمهم درغوث باشا ودخل الجزيرة ونزل على الساحل القبلي واجتمعت أهل الجزيرة وقاتلوا قتالاً شديداً وترادفت العربان مع درغوث باشا فانهزم أهل الجزيرة واستشهد منهم ألف ومائتا شهيد وافترق الباكون واستولى درغوث باشا على الجزيرة ورتب قوانينها واستخلف عليها عامله الشيخ مسعود السوموني ورجع إلى طرابلس سنة سبع وتسعين وتسعمائة وكان أهل المدينة في كدر من جور عمال طرابلس فأرسلوا إلى صاحب تونس وفي ذلك التاريخ دخلت الترك لمدينة تونس والحكم بأيدي البلكباشية في الديوان" (9).

أورد الحياتي والجري الخبر مركباً. ويمكن أن يعدّ في حد ذاته خطاباً يحتوي على عناصر عدّة، منها رؤية كل إخباري للزمن من خلال علاقته بالدولة. ويضع الحياتي الخبر سنة 966هـ/ 1558-1559م، والجري سنة 960هـ/ 1552-1553م أي بمسافة زمنية تقدر بست سنوات. ولم يكن فارق السنوات كبيراً ولكنه ليس بلا مقابل أو بلا معنى. ومهما يكن من أمر، يركز الحياتي خبره في السوموني، شيخ الحكم في جربة. وقد أُعطي آل السوموني والأسرة (10) مقاليد مشيخة الجزيرة منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تقريباً. وكانت مؤسسة شيخ جربة تمثل بناء سياسياً محلياً هرمياً يرمز إليه. ويشق ذلك البناء التفكير المذهبي الإباضي ويعرف بنظام العزابة (11). ويجعل الحياتي من هياكل النفوذ المحلي مركزاً لخبره. وتمثّل الأخبار التي لا ترتبط بشيخ جربة، كالأتراك وعرب الحزم وغيرهم، ملاحق الخبر المتعلق بالسوموني أو أطرافه (12). ويهتم الحياتي بنتائج الخبر المرتبط بأهل جربة في مختلف المراحل. ويصبح مرسى سدويكش حينئذ في مرحلة أولى مكاناً للذاكرة، يرتبط بمواجهة سدويكش ومستواة وتحالف مستواة مع الأتراك وعرب الحزم، فنعت المواجهة مع مستواة بالفتنة. ثم جعل قشتيل الوادي مكاناً لذاكرة آخر مشاهد مواجهة بين السوموني وباشا طرابلس درغوث وحلفائه. فلم تكن المؤسسة المخزنية تعني الحياتي إلا حينما ترتبط بالسلطة المحلية وتتدخل في الجزيرة. فلا تكون الدولة في الحصيلة غائبة في خبر الحياتي بل يكون لها موقع طرفي.

وفي المقابل يركز الجري الخبر في دخول الأتراك إلى جربة (13) وخصوصاً الأفعال التي قام بها درغوث باشا بوصفه رمزاً لمركز حكم ونفوذ. ويهتم أيضاً بهزيمة أهل جربة واستشهاد بعضهم وتشبّت بعضهم الآخر. ويعبر الجري الفعل المخزني الذي قام به درغوث باشا بجربة قبل مغادرته الجزيرة أهمية. وبعد استيلاء درغوث باشا على جربة رتب قوانينها واستخلف فيها السوموني، فحول مؤرخنا منصبه من وضع شيخ جربة، بمعنى شيخ الجزيرة أو شيخ البلد، إلى عاملها. ويشير الجري في مناسبتين إلى علاقة أهل جربة بالمركز تونس، فقد راسل هؤلاء صاحب تونس في زمن بحثهم عن حليف لمواجهة درغوث باشا والتصدي لدخوله أرض جربة، ثم في زمن مواجهة جور عمال طرابلس العاملين في الجزيرة. ويدل هذا الإيماء على أن الراوي ينحاز إلى أتراك تونس ويفضلهم على نظرائهم في طرابلس.

9 الجري، ص 112.

10 المريمي.

11 للمزيد من الاطلاع على نظام العزابة، انظر: فرحات الجعيري، نظام العزابة عند الإباضية الوهيبية في جربة (تونس: المعهد القومي للآثار والفنون، 1975)؛ محمد المريمي، إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث (تونس: نشر كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة/ مجمع الأطرش للكتاب المختص/ مخبر دراسات مغربية، 2015).

12 لمعرفة استعمال لفظة شيخ في الوسط الإباضي في جربة، انظر: Gilles Veinstein, "Aperçus sur l'entrée de l'île de Djerba dans l'orbite ottomane," in: *Les provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane*, CER sur les provinces arabes à l'époque ottomane (Tunis: 1984).

13 يذهب الجري إلى الاهتمام بأخبار السلطة المركزية في مختلف العهود التي مرت بها جربة وأهلها. ومثّل ذلك منهجه وطريقة روايته للخبر قبل تنصيب الأتراك العثمانيين في الجزيرة وأثناء حكمهم. ويمثّل ذلك في حد ذاته الخطاب الذي اعتمده في علاقته بالدولة والمجتمع.

ولم يقتصر الخلاف بين الحيلاتي والجري على صوغ الخبر وروايته وفق المنطق الذي يبيّنه فحسب، بل يتجاوز ذلك ليمتد إلى كيفية التطرق إلى الموضوعات وتناول روايتها، فقد تطرق الإخباريان إلى الموضوعات نفسها وعلاقتها بالمجال المجتمعي الواحد الذي هو جزيرة جربة، وبالذات ذاتها التي هي سلطة طرابلس، ثم سلطة تونس. ونذكر منها الأحداث السياسية والمعالم الدينية وأخبار المشايخ أو العلماء. ومن بين هذه الموضوعات العديدة، نتوقف عند موضوع واحد، يتمثل بما يسميه الحيلاتي مساجد الشطوط ويسميه الجري مزاراتها وحصونها.

ويذكر الحيلاتي نوعين من المواقع والمعالم ذات العلاقة بالمنظومة الدفاعية المحلية في جربة؛ الأبراج ومنها القشتيل بمعنى قشتيل الوادي أو بمعنى ما يعرف اليوم بالبرج الغازي مصطفى⁽¹⁴⁾، وبرج قصر مسعود أو برج مسعود. وكان لهذه الأماكن صبغة دفاعية عسكرية أو أمنية، وكان أهل جربة يقرّون بأن هذه المنشآت الدفاعية كانت للمخزن في إنشائها وفي حيازتها وفي رمزيتها، فكانوا يدفعون لدولة البايات المراديين ثم الحسينيين أداءً: "وعليهم أداء يخرج للحصارات"⁽¹⁵⁾. وكان يوظف هذا الأداء حينها لترميم تلك المعالم وصيانتها. وقد استفاد منها المخزن أكثر مما استفاد منها أهل الجزيرة، وكانت هذه الأماكن مسرحاً لمعارك دارت رحاها بين الأتراك العثمانيين والنصارى، قبل أن تستقر الجزيرة في أيدي الأتراك. وقد استغل أهل جربة أنفسهم تلك الأبراج لمواجهة القوى الخارجية المعادية، خصوصاً النصارى سنة 1560. واستغل شيخ جربة والوهبية برج القشتيل سجنًا حينما كانت تضعف السلطة المركزية في الجزيرة ويقوى نفوذ الهياكل المحلية (العزابة). وقد سجن أهل جربة فيها السوموني، المتوفى سنة 967هـ/1559-1560م، بعد أن عزلوه، وكان قد جار عليهم وظلمهم⁽¹⁶⁾.

ومن جهة أخرى، يركز الحيلاتي في مساجد الشطوط، ويخصص لها رسالة منفردة من رسائله؛ نظرًا إلى أهمية دورها العسكري في المنظومة المحلية التي تشمل أيضًا التنظيم السياسي والإداري، ويميزها عن مساجد الحوم (مفردتها حومة) وتنتشر مساجد الشطوط التي يدل اسمها على السواحل، وكانت تعلّم حدود الجزيرة الجغرافية. ويبلغ عددها أكثر من 25 مسجدًا. وكانت رباطات لخفر السواحل. وقد كان مشايخ العزابة في الجزيرة كالشيخ إلياس بن داود الهواري أحد شيوخ العزابة في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي)، يزورون هذه المساجد بصفة دورية، فكانت الزيارة إحدى عادات هياكل العزابة. وكانت الغاية منها تفقّد الأماكن وشدّ أزر المرابطين وتحفيز همم المقيمين فيها وإقامة الصلاة معهم⁽¹⁷⁾.

وقد كانت مساجد الشطوط تنسب إلى أفراد تؤكد الذاكرة علاقة القرابة بهم، فيقال: "مسجد عمّي عمر" الكائن في صدغيان، أو إلى أفراد يربط بينهم جدّ واحد، فيقال مثلاً: "مسجد أولاد ابن زكرياء"، أو ينسب المسجد إلى فقيه أو شيخ، وهكذا. وقد يطلق على المسجد أسماء نسبة إلى المكان أو إلى حجمه مقارنةً ببقية المساجد الأخرى القريبة منه، فيقال مثلاً: "المسجد الكبير". ولا نعثر في رسائل الحيلاتي على أي معلم ديني يكون في وضع الجامع. فالجوامع لدى الإباضية تتطلب شروط إقامة الجمعة ومن بينها شرط توافر الحاكم العادل كما سنرى⁽¹⁸⁾. ولما لم يكن هذا الشرط متوافراً، كانت مساجد إباضية جربة جميعها في وضع المساجد، ولم تكن البتة في وضع الجوامع. ومهما يكن من أمر، فقد مثّلت مساجد الشطوط حلقةً من حلقات المنظومة الدفاعية في جربة، ضمن نظام العزابة الإباضي،

14 رشيد غريب، برج الغازي مصطفى (مدنين: مطبعة الجنوب، 1977)، ص 2.

15 الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر رقم 1 (1087-1092هـ/1676-1681م).

16 الحيلاتي، ص 52.

17 المرجع نفسه، ص 95.

18 عبد الله السديوكشي، "رسالة في حكم صلاة الجمعة وشروطها"، في: ابن تعاريت. أراد صاحب الرسالة الرد على شيخ المخالفين ابن براهيم (لعله أحد مشايخ أسرة الجمني في حومة السوق) لترك العزابة صلاة الجمعة.

وهي الحصون المتقدمة ضمن المنظومة الدفاعية المحلية في جربة. وقد أدت مساجد الحوم أيضاً دوراً حربيًا متأخرًا في أكثر من مناسبة في الجزيرة. كما كان لتخطيط المنازل أيضاً الدور نفسه؛ أي دور المراقبة والدفاع.

شملت نظرة الحياتي إلى الحصون والمنظومة الدفاعية في جربة، مكونات هياكل النفوذ المحلي ومؤسساتها. فقد كان النظام المعروف بنظام العزابة يشمل جهازًا سياسيًا وإداريًا إلى جانب المؤسسات الاجتماعية (وهو الجهاز الذي تكرس من خلاله الرابطة الاجتماعية والتضامن والتكافل بين أفراد المجموعة الواحدة)، وجهاز دفاعي وأمني، وهو الذي مثل موضوع اهتمامنا.

واهتم الجربي في المقابل بالمنظومة الدفاعية في جربة. وأحصى سبعة أبراج في الجزيرة، شملت البرج الكبير المسمى الحصار ويقع على الساحل الشمالي، شرقي مرسى حومة السوق، و برج جليج الجديد الذي أحدثه حمودة باشا الحسيني ويقع غربي المرسى المذكور، و برج أجيم الذي يقع على الساحل الغربي. كما أنّ هناك أربعة أبراج تقع على الساحل الشرقي: وهي برج تاربله، و برج القنطرة، و البرج المسمى بقشتيل الواد، و برج آغير. واشتمل الساحل الشرقي على هذا العدد من الأبراج، لأن الخطر المحدق بالجزيرة كان يأتيها من هذه الناحية. ويرجع بناء هذه الأبراج جميعها إلى حضور السلطة المركزية في صيغتها المحلية في الجزيرة في فتراتهما المختلفة والمتعاقبة. فقد أسس البرج الكبير المسمى الحصار مثلًا في عهد أبي فارس الحفصي، وقد كان الحفصي أميرًا على تونس وقدم إلى جربة لنجدة أهلها من الحملة الإسبانية⁽¹⁹⁾. أما برج جليج الجديد فقد شيده حمودة باشا الحسيني الذي ساند أسرة القرملي بإيالة طرابلس، ووقف ضدّ الخطر المحدق بجربة جزاء تدخل علي برغل في الجزيرة⁽²⁰⁾.

وجعل الجربي مساجد الشطوط في الجزيرة التي تعدّها الإباضية جزءًا من المنظومة الدفاعية ومراكز لخنفر السواحل ومراقبة الأعداء في البحر، مزارات لا غير، ارتبطت بأولياء صالحين واضطلعت بوظيفة دينية مالكية تقوم في ما تقوم، على التصوف. وكان لأصحابها بركة يرجى منها الفائدة للزائرين وغيرهم. وقد أحصى الجربي من بين هذه المزارات ما يقارب العشرين مزارًا، تتوزع حول الجزيرة، بحيث ترسم حدودها الجغرافية. وفي الحصييلة، أخرج الجربي مساجد الشطوط من دائرة المنظومة الدفاعية المحلية الإباضية، وحشرها ضمن المنظومة الدينية المحلية المالكية. وكان "المالكية" الحلفاء الموضوعيين للسلطة المركزية التي كانت بيد الأتراك أصحاب الانتماء المذهبي الحنفي. فكانت رؤية الجربي مخالفة نظيرتها، رؤية الحياتي، تمامًا على الرغم من أن موضوعهما واحد.

وبناءً عليه، فإن الاختلاف في علاقة الحياتي والجربي بالزمن، أدى إلى اختلاف مدونة كليهما أيضًا. يستعمل الحياتي في مدونته ألفاظًا ومصطلحات تخص الفاعلين الاجتماعيين المحليين، فيذكر لفظة سدويكش وكلمات، نحو: مستاوة ووهبية، فضلًا عن لفظ الشيخ، إلخ. وتخص هذه الألفاظ مستويات تتمثل بالجانب الإثني والقبلي والانقسام الديني المذهبي والتنظيم السياسي الذي تمثله لفظة شيخ جربة وترمز إليه. وفي المقابل يستعمل الجربي لفظة أهل جربة وهي عبارة يمكن أن يكون لها معنيان: يتمثل الأول بسكان جربة الأصليين، وهذا هو المعنى الأرجح الوارد في خطابه. والثاني حكماء جربة وأعيانها ممثلين بمجلس العزابة الأعلى، وهو المعنى المستبعد استعماله من طرف مؤرخنا. ويستعمل الجربي ضمن مدونته ألفاظًا، نحو: "العامل" مكان "الشيخ" والقسم بمعنى التقسيم الترابي والإداري المحلي. وهو لا يعدّ السمويني شيئًا بمعنى شيخ جربة أو شيخ البلد أو شيخ الجزيرة كما يتداول لدى أهل جربة، بل يصفه بـ "العامل" بمعنى القايد أو الوالي أو عامل الباشا في الجزيرة. فمؤسسة رأس التركيبة المحلية السياسية والإدارية واحدة، ولكن نظرة الإخباريين إليها مختلفة، ويرجع ذلك إلى اختلاف مواقع الحياتي والجربي من الدولة والمجتمع، ولا يختلف الإخباريان في ما سوى ذلك من المدونة، فيستعمل كلاهما لفظة الأتراك وألفاظاً أخرى دالة على باقي القوى المتحالفة معهم من الجزء القاربي القريب من جربة، كأولاد شبل وزوارة والسبعة ... إلخ.

19 غريب.

20 رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814 (تونس: الجامعة التونسية، 1980)، ص 229.

ويبدو جلياً أن للحيلاتي والجري منطقتهم في إنتاج المعرفة التاريخية في مختلف مستوياتها. ويرجع ذلك إلى أن المؤرخ في الحصيلة هو ليس مؤرخاً فحسب، بل هو فاعل اجتماعي أيضاً. ويتجلى ذلك من خلال تفحص الروايات الإخبارية واختلاف العناصر التي تكونها. فمن وراء هذا وذاك انتماء وانخراط في منظومات سياسية وإدارية مختلفة في مستويات مؤسسية وترايبية مختلفة أيضاً. ومهما يكن من أمر، فإن المعرفة التاريخية تكون في علاقة بالدولة ولا تخرج عن نطاقها. فالقاسم المشترك بين الحيلاتي والجري هو حضور الدولة في معرفتهما التاريخية على الرغم من اختلاف مكانة الدولة في الخبر لدى كليهما. وتكون مكانة الدولة رفيعة القدر لدى الجري، مقارنةً بما كان عليه البناء السياسي الطرقي في جربة الذي يعرف بنظام العزابة ويلاحظ خلاف ذلك لدى الحيلاتي. ثم إن للحيلاتي والجري منطقتهم في معالجة الواقع الطرقي الذي تمثله جزيرة جربة. والسؤال المطروح في هذا السياق هو: هل يعود اختلاف إنتاج المعرفة التاريخية إلى موقع هذا الإخباري أو ذلك في مجتمعه، ومكانته ومركزه فيه؟

الإخباري بين معروف ومجهول

ينظر اليوم إلى الحيلاتي والجري على أنهما إخباريان، وبغض النظر عن أن الأول عاش في القرن السابع عشر وتوفي سنة 1688-1689 بينما يعدّ الثاني من مؤرخي القرن التاسع عشر وتوفي بعد سنة 1807، وقد كانت المعرفة التاريخية والخطاب الذي يتمثل بمتنيهما بلا شك على علاقة بموقع كليهما من مجتمعهما، وبمزلتتهما فيه وبالمسافة التي تفصلهما عن الدولة وهياكلها. ويعترف متتبعو تراجم المؤرخين بانتفاء الحيلاتي إلى جربة وأهلها. أما في حالة الجري فيعترف له بعض المؤرخين بالانتماء إلى أهل جربة وفي المقابل ينكر بعضهم الآخر عليه انتماء إليهم ويشككون في رواية أصله إلى جربة.

استمد الحيلاتي علاقته بأهل جربة ومكانته فيهم، من عناصر عدّة؛ فهو ينتمي إلى حومة جعبيرة في جربة والحومة هي الحلقة الترابية الدنيا في التقسيم الترابي لنظام العزابة، وغالباً ما تعرف الحومة بمسجدها، فيمثل المسجد المكان المنظم المجتمعي للحومة⁽²¹⁾. ويمثل الحيلاتي أيضاً بالنسبة إلى معاصريه وإلى الأجيال الإباضية المتعاقبة بعد وفاته الشيخ العالم. وقد شهد عصره العديد من مشايخ العلم الكبار فاحتل مكانة رفيعة بينهم ونعته الجري نفسه بقوله: "هو شيخ مشايخ عصره ووحد دهره"⁽²²⁾ ووصفه سعيد بن تعاريت بأنه:

"الشيخ التحرير العالم أبو الربيع سليمان أحمد الحيلاتي محي ما انطمس من آثار أهل الدعوة برسائله وتقييماته المفيدة التي تقدم الكلام عليه والأخذ منه في تاريخ مجالس العلماء والتعريف بهم وذكر مشاهدهم ومقابرهم واجتماعاتهم بجربة وقد اعتنى بهذا الشأن عناية يشكر عليها رأيت له رسالة قيل فيها مشاهد المشايخ وأماكن أضرحتهم ومناقبهم وابتداءً بأبي منصور. ورأيت له قدر ورقة قيل فيها بعض المشايخ ومواضيع المجالس للعلم والتعليم والإفتاء ومن المتولي في ذلك من كل عصر وابتداءً بالشيخ العلامة بوعيش بن موسى الجري وقد رتب وجمع نسبة الدين من زمنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم [...] ورأيت له أجوبة لأسئلة في الفقه والأحكام الشرعية وكان [...] معاصر للشيخ العلامة أبي عبيد الله محمد ابن أبي ستة الشهير بالمحشي [...] توفي في آخر المائة الحادية بعد الألف [...] وأما الحيلاتي فإنه توفي في آخر المحرم سنة 1099هـ (1688-1689م) وقبر سليمان الحيلاتي شرقي قبر أبيه قبلة مسجد البوليمانيين بحومة فصيل وقد حقق موت الحيلاتي ومدفنه الشيخ يوسف بن يحيى البلاز"⁽²³⁾.

21 يؤدّي المسجد في المجتمع الإباضي دوراً أساسياً ويقوم على جماعة المصلين، وهي أهم مؤسسة في المسجد وهي التي تتولى تعيين من يتولى المؤسسات الأخرى داخل المسجد، منها الوكيل أو الوكيلان والإمام والمؤذن والوقاد... إلخ. ويكون على ملك الجماعة أملاك الوقف جميعها التي تكون تحت تصرفهم وفقاً للفقه الإباضي. ويؤسس المسجد لرابطة اجتماعية بين المصلين ويشع على أفراد الحومة كلهم.

22 الجري، ص 93.

23 ابن تعاريت.

خلف لنا الحياتي مجموعة من الرسائل بعضها كامل وبعضها مبتور وناقص سواء في أوله أو في آخره، وشغل وظيفة مدرس، وتعد هذه الوظيفة حينها من وظائف نظام العزابة في مجال التعليم وقام بمهمة الإفتاء في زمانه ومكّن من إحياء الذاكرة الإباضية. وأسّس لمدرسة في الكتابة التاريخية بالنسبة إلى الإباضية، فخطا خطاه مثلاً في القرن التاسع عشر الشيخ سعيد بن الحاج علي بن حمزة بن تعاريت المتوفى سنة 1289هـ/ 1871-1872م فرغ من تأليف رسالة في تاريخ جربة سنة 1274هـ/ 1857-1858م⁽²⁴⁾.

وانخرط الحياتي في مجموعته الإباضية الوهبية أيضاً عن طريق عائلته، أي أسرة الحياتيين فكان أبوه أحمد بن محمد الحياتي المتوفى سنة 1648-1649م رجلاً وصف بالتقي والمحافظ وكان "دأبه العبادة وزيارة المساجد"⁽²⁵⁾. وكان الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الحياتي هو الذي أعطى مكانة للعائلة. فبعد سياحة علمية في مدارس جربة ومساجدها ارتحل إلى جبل نفوسة ثم القاهرة حيث درس في المدرسة الإباضية وجامع الأزهر. وكان "الحامل لعلم المعقول من القاهرة إلى جربة"⁽²⁶⁾. وأهله تكوينه وكفاءته لتولي رئاسة مجلس العزابة خلال القرن السادس عشر الميلادي. وتعدّ أسرة الحياتي من منظور العلماء والمشايخ الإباضية في جربة وخارجها، من العائلات القواعد التي يقوم عليها المجتمع المحلي في الجزيرة. وكانت أخبار الحياتي المتعلقة بالزمن بخصوص انتمائه الشخصي والعائلي والطائفي مطابقة مطابقة كاملة للزمن لدى هياكل النفوذ المحلي، أي العزابة. وقد ركز في مشايخ العلم والدين ومشايخ الحكم، ويذكر في مقدمة إحدى رسائله: "ذكر شيء مما جرى على السلف ذكرته ليتسلى به الخلف مختصراً مما اعتنى بجمعه بعضهم". فهو يركز في من عاش قبله ومن سيأتي بعده من أجيال الإباضية ولم يتطرق إلى زمن الدولة إلا بقدر ما كان له علاقة بأخبار الداخل المحلي. وقد ترجم قلة قليلة للحياتي، من بينهم محمد محفوظ الذي قدم له تقديمًا موجزاً ونسي ذكره كلياً أحمد عبد السلام الذي اهتم بالترجمة للمؤرخين التونسيين، وخصوصاً في القرن السابع عشر. وفي المقابل، يعرف الجبري باسمه (محمد) وباسم عائلته (أبو راس) من دون الإحالة على سلفه (الأب، الجد... إلخ) ولا نعرف شيئاً عن الحومة التي ولد فيها ونشأ، ولا عن أفراد عائلته ولا الخطط التي يمكن أن يكون تولّاها، وإلى أي مجموعة مذهبية أو إثنية انتمى. ونعلم في المقابل، أنه ينعت بـ "الجبري" لا غير. ولم يكن يحظى بالإجماع على الرغم من ذلك النعت بخصوص رواية أصله. وقد اختلف الدارسون في حقيقة انتمائه إلى جربة وإلى الإباضية. ويمكن أن نتميز في هذا الأمر بين ثلاثة اتجاهات أفرزها النقاش حول تعريف الجبري. يتمثل الاتجاه الأول بما كتب محمد المرزوقي الذي تولى تحقيق كتاب **مؤنس الأحبة في أخبار جربة**، وكذلك أحمد عبد السلام صاحب رسالة في تاريخ الثقافة خصصها لدراسة المؤرخين التونسيين في القرون (السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر). وقد نفى محقق "المؤنس" أن يكون محمد أبو راس الجبري هو محمد أبو راس أحمد الناصر الدرعي المغربي صاحب الرحلة. ولاحظ أحمد عبد السلام من جهته أننا "لا نعلم إلا القليل عن مؤلفه (كتاب المؤنس) محمد أبو راس الذي يضيف بعضهم إلى اسمه الناصر أو أحمد الناصر ولعلمهم مخطئون في ذلك"⁽²⁷⁾. ولإثبات هوية مؤلفنا، لجأ المرزوقي إلى التحقيق الميداني للتعريف به لكن بلا جدوى. فلقد اهتدى إلى وجود عائلة أبو راس بجهة غيزن في جربة وكان لها فروع منتشرة في أماكن عدّة داخل الجزيرة وخارجها، ولم يمكنه اتصاله ببعض أفراد العائلة من الحصول على أي علم عن صاحب المؤنس. ويعترف عبد السلام المرزوقي بأن الجبري قد ولد في جزيرة جربة "حيث قضى حياته على ما يبدو، وحيث شاهد عن كثر الأحداث التي جرت في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ميلادي والتي رواها في كتابه"⁽²⁸⁾.

24 المرجع نفسه.

25 المرجع نفسه.

26 سالم بن يعقوب، تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية (تونس: سراس للنشر، 2006)، ص 242.

27 عبد السلام، ص 322.

28 المرجع نفسه.

ويمثل الاتجاه الثاني المؤرخ محمد علي الحبيب الذي كتب مقالةً بعنوان: "نبأ الإيوان لأبي راس الناصري العسكري الجزائري مصدر جديد حول القيروان"⁽²⁹⁾. ناقش فيها نسبة الجربي وانتماءه لجزيرة جربة وأهلها من عدمه. ويزعم مؤرخنا أن الجربي، صاحب "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" هو نفسه مؤلف **نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان** الذي هو محمد أبو راس بن أحمد [...] الراشدي قبيلة، والعسكري إقامة ومدفنًا، والجزائري نسبة لبلده المتوفى سنة 1823. ويذهب إلى القول إن محمد المرزوقي أهمل الاسم الكامل للكاتب الذي ورد في ديباجة النسخة الخلدونية على غلاف كتابه وعوّض المرزوقي الاسم بكنية الجربي من دون تبريرات أو مستندات. ويعدّ محمد علي الحبيب "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" من التأليف الثانوية لدى العسكري. ويرى مؤرخنا من جهة أخرى أن صاحب "نبأ الإيوان" مرّ على جربة في بعض أسفاره ولكنه لم يكن له علم بوجود المذهب الإباضي. ويزعم أن جربة أصبحت حينها في حضرة المالكية ويرى أن التراجم المختصرة لمشايخ الإباضية في كتاب مؤنس الأحبة لا تدل على انتماء الجربي لجربة. فكانت مشاركة محمد علي الحبيب في نقاش مسألة انتماء الجربي من الناحية الإيستيمولوجية، ومن الناحية الفلسفية التاريخية تنطلق من خارج واقع جربة، ومن خارج خطاب الجربي نفسه. فكان عليه التمييز بين ما يقوله النص وما لا يذكره، وخصوصًا ما يتحمّله الواقع التاريخي لجربة خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين. فقد الإباضيون في جربة حينها زمن الجربي كثيرًا من نفوذهم، مع ضعف واضح في مؤسساتها كلها المحلية (العزابة) ولكن بقي وزن أعيان الإباضية قائمًا بفضل هيئة مشايخ الدين والعلم والفقهاء الإباضيّين وبحضور أعيان المال وتنظيمهم جميعًا للرابطة الاجتماعية التقليدية في حوم جربة القائمة على المساجد الإباضية، ومن خلال العلاقة بشتات أهل جربة كما جرت العادة.

وضمن الاتجاه الثالث، يكشف الشيخ سالم بن يعقوب عن مؤرخنا بقوله: "ولا هو من العائلات الجربية الملقبة ببوراس"⁽³⁰⁾. ويذكر أن مؤلف "مؤنس الأحبة في أخبار جربة" هو أحمد أبو راس القيرواني ويعرفه بالقول: "كان موظفًا بجربة زمن الباي حمودة باشا الحسيني وهو قيرواني وليس بجربي. ألفه سنة 1223هـ وذكر فيه حميدة بن عياد المتولي على جربة سنة 1223هـ"⁽³¹⁾. وكان الشيخ سالم بن يعقوب مدرسًا الإباضية بجربة ومؤرخها، ولد في عام 1903 وتوفي عام 1988. ويذكر الصادق بن مرزوق في أحد أقواله: "هذا ما رواه لنا مؤلف كتاب مؤنس الأحبة ولم يكن من الإباضيّين أو الجربيّين" ويعدّ ابن مرزوق هو الآخر من مشايخ العلم الإباضية أيضًا، وهو معاصر للشيخ بن يعقوب⁽³²⁾.

ونعتقد أن هذا النقاش الذي خلفته رواية الأصل المتعلقة بالجربي لدى مختلف المؤرخين والدارسين كان الأصل فيه تطبيق الإباضية مبدأ "البراءة" (ويقابل هذا المصطلح مصطلح الولاية) فيه. ويستنتج ذلك من مخالفة خطابه المنطق الإباضي المعتمد بجربة كما عبّر عنه الحيلاتي وغيره من بعد. كما يستنتج من موقف مشايخ الإباضية، كالشيخ سالم بن يعقوب والصادق بن مرزوق وغيرهما من الجربي. ويتهم الجربي على نحو معلن أو غير ذلك، بأنه طمس الذاكرة الإباضية التي اشتغل عليها قبله الحيلاتي، ومسّ تراجم العلماء الإباضية وكافأ بخطابه وبمعرفته التاريخية المخزن على حساب هياكل النفوذ المحلي الإباضية. والبراءة هي آلية لا ينفرد بها الإباضية وحدهم، بل وُجدت لدى مذاهب إسلامية أخرى، ولدى اليهود وتقضي بطرد الفرد من الجماعة حين يقوم بفعل يُعدّ خطرًا، ولا يتماشى مع المنظومة الطائفية وتماسك أفرادها. وتكون انعكاسات تطبيقها على الفرد حاسمة إلى حدّ نسيانه من الذاكرة الجماعية لمجموعته.

29 محمد علي الحبيب، "نبأ الإيوان" لأبي راس الناصري العسكري الجزائري، في: **معسكر المجتمع والتاريخ** (الجزائر: منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، 2014)، ص 49-93.

30 ابن يعقوب، ص 17.

31 المرجع نفسه.

32 الصادق بن مرزوق، "أبو ظاهر إسماعيل الجبيلي: حياته ومآثره"، في: **أعمال الملتقى حول تاريخ جربة** (المعهد القومي للآثار والفنون/ جمعية صيانة جزيرة جربة، نيسان/ أبريل 1982)، ص 50.

وأصبح الجري خارج دائرة جماعته، وتكرّر له أفراد عائلته وأسقطوه من الذاكرة العائلية⁽³³⁾. ونحن نذهب إلى ما ذهب إليه المرزوقي وعبد السلام؛ أنّ أصل المؤلف من جربة، وتدل الأخبار الواردة في متن كتابه، وبلا شك، على ذلك. وبالرجوع إلى علاقة الجري بإنتاج المعرفة التاريخية، فقد كان فاعلاً اجتماعياً تركّزت أخباره في سلطة تونس المركزية، وكان موالياً للباي حمودة باشا الذي وصفه بـ "المؤيد المنصور" وكانت هذه الموالاة المطلقة للمخزن سبباً في إخراجها من الملة الإباضية⁽³⁴⁾.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الحيلاتي ابن بيئته المحلية، يعلن انتماءه الإباضي في العديد من مواضع رسائله بالتصريح أو بالتلميح. وقد تولّى وظائف من صلب نظام العزابة، ولم يتولّ البتة في المقابل الخطط المخزنية، بل كان بعيداً عنها. وكانت أخبار جماعته تحتل مركز أخباره كما رأينا، أما أخبار المخزن فكانت في الأطراف. وبقدر ما خصّ الحيلاتي الدولة بطرف أخباره، أهمل تماماً فئات اجتماعية كانت تشترك مع الإباضية في سكنى الجزيرة. فسي ذكر الأخبار المتعلقة باليهود؛ لأنّ الإباضية لم يكونوا يخشون من اليهود شيئاً؛ لقلّة عددهم ولضعف وزنهم السياسي، ولم يتحدث عن "العرب" إلا بقدر ما كانوا يمثلون خطراً على مؤسسات العزابة، ولم يتحدث أيضاً عن العائلات المخالفة مذهبياً (مالكية وحنفية). وفي المقابل، تطرق في أخباره إلى الأتراك، وكان الجانب السياسي وقضايا مجموعته الإباضية هو ما يهّمه. أما الجري فلا شيء يدلّ على أنّه شغل وظيفة رسمية. وقد كانت علاقته بالمخزن تندرج ضمن الولاء السياسي للسلطة المركزية. وفي الحصيلة تنكّر الجري لإباضيته ولانتمائه السياسي إلى مجموعته ولانتمائه المذهبي، وقد كان ثمن ذلك تنكّر إباضية جربة له، ونسيانه من طرف ذاكرة عائلته.

وفي علاقة بالمعرفة التاريخية، كان للمخزن ولأهل جربة حضور في أخبار الحيلاتي والجري. ويتمثل اختلافهما بتركيز الجري في أخبار السلطة المركزية في الأساس، بينما تركّزت أخبار الحيلاتي في ما يخصّ أهل جربة وهياكل النفوذ المحلي. وفي الحصيلة، قد يكون الفرد فاعلاً اجتماعياً في وظائف المؤسسات المحلية أو في المؤسسات الرسمية التي يشغلها، أو في الفكر الذي يحمله، ويروجه ويدافع عنه أو الاثنين معاً. ولكن السؤال المطروح في حالتي الحيلاتي والجري، هو: ما النظام السياسي والاجتماعي الذي ينتمي إليه الحيلاتي والجري ويدافعان عنه؟

استعمالات المعرفة التاريخية

تعرضنا إلى كيفية صوغ الخبر عند الحيلاتي والجري من جانب الزمن والمدونة وغيرهما. ثم حاولنا معرفة مكانتيهما ومنزلهما من المجموعة المحلية من جهة، والمخزن من جهة أخرى. وقد تبين أنّ صياغة المعرفة التاريخية مرتبطة بوضع الفاعل الاجتماعي، وقد يكون الفاعل الاجتماعي هو الأصل لدى الإخباري في إنتاج المعرفة التاريخية. لكن السؤال المطروح هنا: ما المنظومة السياسية والاجتماعية التي اختار الحيلاتي والجري الانخراط فيها انطلاقاً من إنتاج المعرفة التاريخية من جهة، ووضع الأخبار من جهة أخرى؟

يركز الحيلاتي أخباره في مشايخ العلم والدين ومشايخ الحكم الذين يشغلون في حقيقة الأمر مؤسسات هياكل النفوذ المحلي المعروفة بنظام العزابة. ولا يهتم بأمور العامة إلا بقدر ما يرتبط ذلك بتدخل مؤسسات العزابة وسياسة مشايخ الحكم. ويدرج جربة في تبعية طرابلس وعمالتها، خصوصاً مع درغوث باشا، بداية من 1551-1552. وتتحوّل جربة إلى تبعية تونس بداية من 1606-1605م. وقد وظف أتراك طرابلس وسلطة ولاية تونس على أهل جربة، إضافة إلى الأداء العادي المعروف لدى أهل جربة بالسنوية، أداء غير

33 انظر في موضوع: "البراءة" وتطبيقاتها بحرية، في: فرحات الجعبري، نظام العزابة عند الإباضية الوهبية بحرية (تونس: معهد الآثار، 1975)، ص 98؛ محمد المريمي، إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث، ص 309.

34 لا شك في أنّ الجري عاش حدث دخول علي برغل إلى جربة سنة 1792، وقيام حمودة باشا بتخليصها من حاكم طرابلس حينها.

عادي من دية وخطية⁽³⁵⁾. ويثير الحيلاتي مؤشرات دالة على طبيعة علاقة أهل جربة بسلطة ولاية طرابلس، وولاية تونس التي كانت في الحالات جميعها، سلطة استبدادية وتسلمية قمعية. ولكننا نلاحظ على المدى الطويل أنه يفرز مرحلة يخصصها بعناية منفردة، وينظر إليها نظرة إيجابية، تتمثل ببداية رجوع جربة إلى حكم تونس (نعود إليها لاحقاً).

كما نلاحظ حصول نقاش فكري سياسي بين أهل جربة وعلمائها يرتبط بالعلاقة بالأتراك وبوجودهم في الجزيرة، وتبعيتها السياسية للحكم المركزي. وقد ذهب بعضهم إلى القول: ما دام القائد يتبع في حكمه دولة الخلافة ويرجع إليها، فإن على البلاد الإسلامية جميعها أن تسمع وتطيع، إذا طالبها ولاية تلك الدولة بالطاعة سواء أكان مركز الولاية في طرابلس أم في تونس. وذهب بعضهم الآخر إلى القول إن جربة تابعة في طبيعتها وحكمها لتونس، وهي دولة مسلمة على أهلها المحافظة على ارتباطها، وعلى أهلها ألا يخالفوا ذلك، سواء أبقيت تونس مستقلة أم صارت من ولايات دولة الخلافة⁽³⁶⁾. ونحن نفترض أن الحيلاتي كان من أنصار هؤلاء واستبشر بتبعية جربة لتونس. ومهما يكن من أمر، فقد كانت السلطة المركزية حاضرة في إنتاج المعرفة التاريخية للحيلاتي الذي رأى أن الوضع الطبيعي يكمن في تبعية أهل جربة لتونس وليس في وضع آخر.

وعند العودة إلى المعرفة التاريخية التي أنتجها الحيلاتي نجده يورد ما يأتي: "وفي السنة الرابعة عشر في أولها وردت الأخبار بأن مجباها (جزيرة جربة) رجع لعسكر تونس"، ثم يضيف "وتولى أهل تونس أمر جربة وكان مبدأ دولتهم حميداً"⁽³⁷⁾. ويقول في خبر آخر: "وفي سنة اربعة وعشرين حرث أهل جربة في الدخلة القبلية وقد قل من لم يخرج اليها وصار زرعاً خصيباً لم يعهد مثله فأتته محلة من تونس نزلت عليه وحمته من العرب حتى حصده ودرسوه ودخلوا به ولم يعطوا منه شيئاً لأحد"⁽³⁸⁾. وكان أهل جربة وما زالوا إلى اليوم يملكون أراضي في الدخلة، وهي الأرض القارية المحاذية للجزيرة من جهة جرجيس. فالجزيرة لا تنتج حبوباً وهي لا تكتفي بذاتها كباقي الجزر الأخرى. وتمثل أرض الدخلة إلى اليوم، المجال الفلاحي الحيوي لأهل جربة. وقد كانت هذه الأملاك مهددة من القبائل المجاورة كورغمة وعكار وغيرها. وقد وجد أهل جربة في الحالة التي تعيننا حماية من السلطة المركزية في تونس كما هو منتظر في تلك الحالات. فكان لهم وفقاً لذلك القيام بجميع الأشغال الممهدة لجني ثمار زرعهم. ثم إن السلطة لم تأخذ مقابلاً تحت أي عنوان كان (إضافياً، غير عادي، وغيره). ونزل الحيلاتي حينئذ المعرفة التاريخية بهدف خدمة المشروع المجتمعي الذي كان يجد الإباضيون فيه أنفسهم وكانوا يعملون على تكريسه في حيز الواقع، وهو مشروع تكون فيه الدولة حاضرة لكن في سياق الدولة "الحامية" بلا ابتزاز، والدولة الحاضنة بلا تسلط.

وورد في الأدب الإباضي وفي سير المشايخ الإباضية في موضوع استباحة أموال المسلمين من عدمها من طرف السلطة الحامية، ما يساير الرؤية التي يعبر عنها الحيلاتي في خطابه⁽³⁹⁾، ونذكر من بين الأمثلة العديدة التي تركز رؤية الإباضية للعلاقة بين الدولة والمجتمع والسياسة المثلى، مثال هجوم قبيلة ورفجومة الصفرية على القيروان واستباحتهم أعراض أهلها وأموالهم، ثم استغاثة أهلها بإمام طرابلس أبي الخطاب عبد الله علي المعافري الإباضي، وإغاثته إياهم وانهزام الصفرين أمام جيوشه، ثم عودته إلى طرابلس من

35 المريمي، إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث، ص 155.

36 علي يحي معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الإباضية بتونس، الحلقة الثالثة (بيروت: دار الثقافة، د.ت.)، ص 296.

37 الحيلاتي، ص 20.

38 المرجع نفسه، ص 23.

39 لم تكن الدولة الرستمية التي كان التفكير المذهبي الإباضي يشق مؤسساتها تجمع الأموال أو تفرض الضرائب على الناس، وإنما تجمع الزكاة وفق النظام الإسلامي. وتحرص على صرفها في وجوهها التي عينها الكتاب الكريم وكانت زكاة جربة لا تخرج منها، فقد كان عامل الدولة يجمعها من أصحابها ثم يصرّفها بحرص شديد في الوجوه التي تُصرف فيها الزكاة، انظر: يحي معمر، ص 211-212.

دون أخذ شيء مما خلفوه. وكذلك هجوم ابن طولون بجيشه على طرابلس هازماً الأغالبة، واستغاثة طرابلس بأبي منصور إلياس، وإلى نفوسة من طرف الرستميين فأغاثتهم، وهزم جيش ابن طولون، ورجع إلى مقره مع جيشه من دون أن يلحقهم دائق أو ثوب من متاع ابن طولون⁽⁴⁰⁾.

ويأخذ إنتاج المعرفة التاريخية لدى الحيلاتي في الحسبان المنظومة السياسية والإدارية المحلية القائمة على هياكل نظام العزبة الإباضي في جربة، خلال القرن السابع عشر الميلادي وقبله، ويتخذ منها مشروعاً مجتمعياً وهو من الناحية السياسية نظام قائم على علاقة مجتمعية هرمية، ومن الناحية الاجتماعية على رابطة التضامن بين الأفراد التي تتمحور حول المسجد عموماً ودور الأوقاف فيه. وكان الحيلاتي جزءاً لا يتجزأ من تلك المنظومة، وكان مشروع الإباضية يقوم على مبدأ مفاده أن السلطة المركزية لا تتدخل إلا بقدر، بينما يبقى القول الفصل في الأطراف، لهياكل النفوذ المحلي.

ولن نعود إلى كيفية صوغ المعرفة التاريخية لدى الجربي وما ينتج منها، ولكن سنهتم برؤيته لجربة بوصفها موضوع مؤلفه، من خلال مسائل تطرق إليها في العلاقة بحضور الدولة أو غيابها. وقد عرف من خلال موضوعات تطرق إليها في زمن الجزيرة، فتوقف عند آثارها القديمة التي ترجع إلى ما قبل الإسلام، بينما أهمل الحيلاتي ذكر آثار الجزيرة القديمة جميعها، ونسي في الحصيلة التعرّيج على زمن "الجاهلية". وربط الجربي العديد من الأماكن في جربة بعهد "الجاهلية" بعضها مسيحي، وبعضها غير ذلك. وبذلك فقد شمل خطابه ما قبل الإسلام وما بعده. إن الأماكن في نظر الجربي تنتمي إلى تراب، والتراب يمثل جزءاً من الدولة التي يروج لها.

وقد سبق أن تطرقنا إلى رؤية الجربي للأبراج بوصفها أماكن ترمز للسلطة المركزية. فحينما يتحدث عن برج جليج يخبر بأن حمودة باشا الذي يصفه بقوله "المؤيد" هو من شيّده. ويقف بذلك عند حضور الدولة في الجزيرة وموزها. ويسجل ولاءه لهذا الباي الذي كان معاصراً له⁽⁴¹⁾. ومن جهة أخرى، وخلافاً للحيلاتي الذي ينسب مشايخ العلم والدين غير الإباضيين من آل المنيأوي والشيخ المالكي إبراهيم الجميني الذي نزل الجزيرة سنة 1673، لفت الجربي النظر لاثني عشر شيخ علم ودين من مشايخ الجزيرة، ولم يقدم أيّاً منهم على أساس انتمائه الإباضي، بل ذكره ولم يذكر صفته المذهبية، فاستوى لديه المالكي كإبراهيم الجميني، والإباضي كاليهراسني وغيره. وقام بتدبر خطاب يحتوي مشايخ العلم والدين والمتصوفة جميعهم بلا تمييز. وقد وصف مشايخ الإباضية بما يوصف به نظراً لهم المالكية، نحو: "مستجاب الدعوة"، أو وصف العالم الواحد منهم "بالولي الصالح"، وهكذا⁽⁴²⁾. فكانت رؤيته لجربة تقوم على أنها تمثل طرفاً لتراب مجتمعي ملحق بالدولة، فكان فكر المشايخ من فكر الدولة، والنقيض أيضاً صحيح. ويخصص الجربي لموضوع الخطط مكانة في متنه، يذكر منها تسع خطط: ست منها يعطيها وضع الجوامع، ويضيف إليها المدرسة الجمنية وبرج أغير وبرج القنطرة وبرج جليج. وما هو لافت في هذه الخطط مسألة تعريف أماكن إقامة الشعائر الدينية الإباضية، فيجعل منها جوامع كما سبق أن ذكرنا، في حين أن الإباضية تضع شروطاً لإقامة صلاة الجمعة. والملاحظ أن أول صلاة للجمعة أُقيمت في الجزيرة وقعت في مسجد الشيخ بحومة السوق في عهد موسى بن جلود سنة 1668-1669⁽⁴³⁾. وبعبارة أخرى، لا يصح استعمال لفظة جامع في الوسط الإباضي سوى بعد هذا التاريخ، وهو من التأثيرات المالكية في الوسط الإباضي. أما الأمر الثاني، فإن باقي الخطط كانت أماكن مخزنية أكثر منها أماكن أهلية. وقد أسس آخر بايات الدولة

40 ابن يعقوب وقاسم قوجة، "رد على مقال نشر بالحياة الثقافية سابقاً"، الحياة الثقافية، العدد 38 (1985)، ص 247-250.

41 الجربي، ص 80.

42 هناك اختلاف بين مفهوم الولي الصالح لدى المالكية ولدى الإباضية. فالولي الصالح لدى هؤلاء هو من ينزوي بنفسه ويتعد عن الناس، قصد التعبد والتأسيس لعلاقة مباشرة بالله. أما الولي الصالح لدى المالكية، فيُزار ويُتبرك به ويتوسط بين العبد وخالقه، انظر:

Mohamed Merimi, "L'altérité ibadhite d'Oman selon Ibn Battûta," in: *Entre étranger au Maghreb et ailleurs*, sous la direction de M L Gharbi, FLAH de Manouba, FSHS de Tunis (Tunis: Laboratoire Diraset, 2011), pp. 33-60.

43 الحيلاتي، ص 59.

المرادية المدرسة الجمينية التي شهدت توسعة في عهد مؤسس الدولة الحسينية، حسين بن علي⁽⁴⁴⁾. وكانت الدولة حاضرة بقوة في الأبراج التي ذكرها الجربي في خطه. فضلاً عن ذلك فقد قسم الجربي الجزيرة تقسيماً إدارياً إلى أقسام، وهو ما يحيل إلى "الأخماس" التي هي دوائر جبائية⁽⁴⁵⁾. أما الحيلاتي فيسميها بأسمائها فيقول: صدغيان أو صدويكش وهكذا.

ومجمل القول إن المعرفة التاريخية التي أنتجها الجربي، بما احتوته من التعريف بالجزيرة بأثارها وأبراجها ومراسيها وأسواقها وحاراتها وأقسامها، كانت ترمي إلى الترويج لمشروع مجتمعي وسياسي، هو مشروع الدولة الترابية. بدأ تكوّنهما منذ عهد الدايات، واستمر إلى عهد دولة حمودة باشا الحسيني المعاصر لمؤرخنا، وبدأ الأمر بتثبيت القبائل وتحديد حقوق المخزن، وانتهت مع الجربي باحتواء تراث البلاد بأطرافها، وإعلاء راية الدولة⁽⁴⁶⁾.

الخاتمة

لم تكن رؤية المؤرخين التونسيين للدولة والمجتمع رؤية واحدة، وكان للخبر التاريخي علاقة بالزمن والموضوعات والمدونة والألفاظ المستعملة أكثر من استعمال واحد. ويدل مثال الجربي على أن المؤرخين الموالين للمخزن قد يقعون في الأطراف، وقد لا يكونون أصحاب خطط أو روايتية لدى المخزن، بل يكون لهم فكر مخزني داعم لدولة ترابية قوية. وبهذا المعنى فإن وجود الدولة لديهم هو الذي يحدد مفهوم الأطراف، لا غيره. وكان انتماء الحيلاتي الإباضي وانخراطه ضمن منظومة العزابة كافيئ لتكون له رؤية من منظور إباضي للدولة. وقد كان للإباضية انتظار تاريخي من الدولة، ويكون مكان الدولة في خطابهم في الأطراف على أهميتها ودورها في كونها تحمي وتغيث بلا ابتزاز.

ونحن نذهب إلى الاعتقاد أن الأهم في رواية الأصل لدى الجربي هو المعرفة التاريخية التي خلفها لنا، ونعني الخبر من حيث تركيبته وزمانه ومدونته واستعمالاته وغاياته والهدف منه. ونحن لا نذهب إلى ما ذهب إليه الدارسون الإباضية الذين تبرؤوا من الجربي بوعي أو بلا وعي. ولا نذهب أيضاً إلى ما ذهب إليه غير الإباضية الذين نظروا إلى مؤلف الجربي من الخارج واستنتجوا بتسرع، ومن دون تعمق رواية أصل خاطئة لمؤرخ جربة، وقد بينت المعرفة التاريخية التي أنتجها مدى وعيه بالخطاب السياسي، ومدى إدراكه للدولة في علاقة بالتركيبية المجتمعية المحلية كما كان للدولة في خطابه حضور مركزي، ولهايكل النفوذ المحلي حضوراً طرقي على خلاف ما هو الأمر لدى الحيلاتي. وفي الحصيلة، فقد كان للإخباريين (الحيلاتي، والجربي) منطلق ومصالح برزت جلية في المعرفة التاريخية المنتجة لكليهما.



44 حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعموري (تونس: الدار العربية للكتاب، 1975)، ص 130.

45 الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر رقم 1 (1087-1092هـ/1676-1681م).

46 انظر: عبد الحميد هنية، تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال (تونس: تير الزمن، 2012).

References

المراجع

العربية

- الإمام، رشاد. سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814. تونس: الجامعة التونسية، 1980.
- ابن تعاريت، سعيد. رسالة في تاريخ جربة في تراجم علماء الجزيرة وذكر أمرائها من بني السمووني وبني الجلود (مخطوط). حومة السوق - جربة، المكتبة البارونية.
- الجبري، محمد أبو راس. مؤسس الأحبة في أخبار جربة. تحقيق محمد المرزوقي. تونس: المعهد القومي للآثار والفنون، 1960.
- الجعيري، فرحات. نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة. تونس: المعهد القومي للآثار والفنون، 1975.
- معسكر المجتمع والتاريخ. الجزائر: منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، 2014.
- خوجة، حسين. ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. تحقيق الطاهر العموري. تونس: الدار العربية للكتاب، 1975.
- الحيلاتي، سليمان. علماء جربة المسمى رسائل الشيخ سليمان بن أحمد الحيلاتي الجربي. تحقيق محمد قوجة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.
- عبد السلام، أحمد. المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19م، رسالة في تاريخ الثقافة. نقلها أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي. قرطاج: بيت الحكمة، 1993.
- غريب، رشيد. برج الغازي مصطفى. مدينين: جمعية صيانة جزيرة جربة، مطبعة الجنوب، 1977.
- المريمي، محمد. إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث. ط 2. تونس: نشر كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة/ مجمع الأطرش للكتاب المختص / مخبر دراسات مغاربية، 2015.
- _____ "الفئات الاجتماعية بجزيرة جربة وعلاقتها بالسلطة المركزية خلال العصر الحديث". مذكرة شهادة الكفاءة في البحث. نوقشت في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1990.
- معمر، علي يحيى. الإباضية في موكب التاريخ، الإباضية بتونس. ط 3. بيروت: دار الثقافة، د. ت.
- هنية، عبد الحميد. تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال. تونس: تبر الزمن، 2012.
- ابن يعقوب، سالم. تاريخ جزيرة جربة ومدارسها العلمية. تونس: سراس للنشر، 2006.
- ابن يعقوب وقوجة، قاسم. "رد على مقال نشر بالحياة الثقافية سابقاً". الحياة الثقافية. العدد 38 (1985).

الأجنبية

- Henia, Abdelhamid. *Ecritures de l'histoire du Maghreb: Identité, mémoire et historiographie*. Coordination A. El Moudden, A. Henia, A. Benhadda. Rabat: F. L. S. H., 2007.
- Merimi, Mohamed et al. *Etre étranger au Maghreb et ailleurs*. Sous la direction de Mohamed Lazhar Gharbi. Tunis: FLAH de Manouba, FSHS de Tunis. Tunis: Laboratoire Diraset, 2011.
- Veinstein, G. "Aperçus sur l'entrée de l'île de Djerba dans l'orbite ottomane." *Les provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane*. CER, Tunis: 1984.